جعل رسول الله هو من يحل وثاقهم من السوارى ، وقبل منهم الصدقات؛ ليسوا وحدهم ، فهناك أناس آخرون فعلوا نفس الأمر ، لكنهم لم يربطوا أنفسهم فى سوارى المسجد ، ولا اعترفوا بذنوبهم ؛ لذلك يجىء قوله الحق :

﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾

والمقصودون بهذه الآية هم الثلاثة الذين سيخصهم القرآن بآيات خاصة يقول فيها :

﴿ وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ [التوبة]

وهؤلاء الثلاثة هم : كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع [1]. وهم قد تخلفوا أيضاً عن غزوة تبوك ، ولم يكن لهم عذر فى التخلف أبداً ، فكل واحد يملك راحلته ، وعندهم مالهم ، وعندهم كل

---

(١) كعب بن مالك الأنصارى شاعر مشهور شهد بيعة العقبة الثانية وتخلف عن غزوة بدر وشهد ما بعدها ثم تخلف فى تبوك. توفى عام ٥٠ هـ فى زمن معاوية. (الإصابة فى تمييز الصحابة ٥/٣٠٩) .

أما هلال بن أمية الأنصارى فقد شهد بدراً وما بعدها ، مات فى خلافة معاوية ، وهو الذى ظهر صدقه فى قذفه لامرأته بالزنا (الإصابة ٦/٢٨٩) . أما مرارة بن الربيع الأنصارى ، فهو صحابى مشهور شهد بدراً أيضاً (الإصابة ٦/٧٦) .

شيء . وقد قصّ واحد منهم حكايته [١]، وبيّن لنا أنه لم يكن له عذر : «وما كنت في يوم من الأيام أقدر على المال والراحلة مني في تلك الغزوة ، كنت أقول : أتجهز غداً ، ويأتي الغد ولا أتجهز ، حتى انفصل الركب ، فقلت ألحق بهم ، ولم ألحق بهم » .

هؤلاء هم الثلاثة الذين جاء فيهم القول: ﴿ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ ﴾

و﴿ مُرْجَوْنَ ﴾ أو «مرجئون» والإرجاء هو التأخير . أي: أن الحكم فيهم لم يظهر بعد ؛ لأن الله يريد أن يبين للناس أمراً ، وخاصَّةً أن رسول الله ﷺ لم ينشىء في الدولة الإسلامية سجناً يُعزَل فيه المجرم ؛ وهذا لحكمة ، فكونك تأخذ المجرم وتعزله عن المجتمع وتحبسه في مكان فهذا جائز . لكن النكال في أن تدعه طليقاً ، وتسجن المجتمع عنه .

وهكذا تتجلى عظمة الإيمان ؛ لذلك أصدر ﷺ أمراً بأن يقاطعهم الناس ، فلا يكلمهم أحد ، ولا يسأل عنهم أحد ، حتى أقرباؤهم ولا يختلط بهم أحد في السوق أو في المسجد .

وكان أحدهم يتعمد أن يصلي قريباً من النبي ﷺ ويختلس النظرات ليرى هل ينظر النبي له أم لا ؟ ثم يذهب لبيت ابن عمه ليتسلق السور ، ويقول له : أتعلم أنني أحب الله ورسوله ؟ فيرد عليه : الله ورسوله أعلم. وهكذا عزل رسول الله ﷺ المجتمع عنهم ، ولم يعزلهم عن المجتمع . وكذلك

---

(١) هو كعب بن مالك ، قال: « لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزوة ، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة . . وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال ، فأنا إليها أصغى (أي: أميل) فتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه ، وطفقت أغدو لكي أتجهز معهم فأرجع ولم أقض شيئاً وأقول في نفسي: أنا قادر على ذلك إذا أردت، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى استمر بالناس الجد . . . فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو . . . » حديث طويل أخرجه مسلم في صحيحه (٢٧٦٩) .

عزلهم عن زوجاتهم ، وهو الأمر الذى يصعب التحكم فيه. وحذر ﷺ زوجاتهم أن يقربوهم إلى أن يأتى الله بأمره.

﴿ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾

هذا بالنسبة لنا - إما أن يعذبهم وإما أن يتوب عليهم. لكن الحق سبحانه وحده هو الذى يعلم مصير كل واحد منهم.

فالتشكيك إذن هو بالنسبة لنا ؛ لأنهم مُرْجَوْن لأمر الله ولم يبت فيهم بحكم لا إلى النار ولا إلى الجنة ، ولم يَبت فيهم بالعفو . أما أمرهم فهو معلوم له سبحانه إما أن يعذب وإما أن يتوب ؛ لأن كل حكم من الله له ميعاد يولد فيه ، ولكل ميلاد حكمة ، وهناك قوم عجّل الله بالحكم فيهم، وقوم أخّر الله الحكم فيهم ؛ ليصفى الموقف تصفية تربية ، لهم فى ذاتهم ، ولمن يشهدونهم.

وقد استمرت هذه المسألة أكثر من خمسين يوماً ؛ ليتأدبوا الأدب الذى دبهم به المجتمع الإيمانى ، فلم يشأ الله أن يبين الحكم حتى يستوفى هذا التأديب.

وإذا أُدِّب هؤلاء ، فإن تأديبهم سيكون على مَرْأى ومسمع من جميع الناس ، فيأخذون الأسوة من هذا التأديب.

ولو أن الله عجّل بالحكم ، لمرّت المسألة بغير تأديب للمعتذرين كذباً وغيرهم ، فقال: ﴿ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللَّهِ ﴾ ومادام سبحانه قد حكم هنا بأنهم مؤخَّرون لأمر الله ، فليس لنا أن نتعجل قصتهم ، إلى أن يأتى قول الله فيهم:

﴿ وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا ... (١١٨) ﴾ [التوبة]

وأراد الله أن يقص لنا قصة أخرى من أحوالهم ، فقال :

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾

يقص لنا القرآن هنا حالاً من أحوال المنافقين (١) ، وأحوالهم مع الإيمان متعددة . وقد ذكر الحق سبحانه عنهم أشياء صدَّرها بقوله : ﴿ ومنهم ﴾ ، ﴿ ومنهم ﴾ و ﴿ ويحلفون ﴾ ، ﴿ ويحلفون ﴾ ؛ ولذلك يسميها العلماء «مناهم التوبة» ، مثل قوله :

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ ... ﴿٧٥﴾ ﴾ [التوبة]

وقول الحق :

﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ ... ﴿٦١﴾ ﴾ [التوبة]

وقوله الحق :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ... ﴿٤٩﴾ ﴾ [التوبة]

---

(١) وهم اثنا عشر من المنافقين اتخذوا مسجداً ضراراً ؛ مضارة لأهل مسجد «قباء» وكفراً ؛ لأنهم بنوه بأمر أبى عامر الراهب ، ليكون معقلاً له يقوم فيه من يأتى من عنده ، وكان قد ذهب ليأتى بجنود من قيصر لقتال النبى ﷺ وتفريقاً بين المؤمنين الذين يصلون فى قباء ، وإرصاداً وترقّبا لمن حارب الله ورسوله ﴿ من قَبْلُ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [التوبة] أى : قبل بنائه ، ﴿ وليحلفن ﴾ كذباً ما أردنا بالبناء ﴿ إلا الحسنى ﴾ من الرفق بالمسكين من المطر وحرارة الشمس ، والتوسعة على المسلمين ، ﴿ والله يشهد إنهم لكاذبون ﴾ [الجلالين] بتصرف .

وقال الحق عنهم أيضاً : ﴿وَيَحْلِفُونَ﴾ ، ﴿وَيَحْلِفُونَ﴾ ، ﴿وَيَحْلِفُونَ﴾ ويقولون عنها : «محالف [1] التوبة» ، ويقص الحق هنا حالاً آخر من أحوال المنافقين ، وقد قص له نظيراً فيما سبق ، وهؤلاء المنافقون - كما قلنا - متعارضون فى ملكاتهم ، ملكة لسانية تؤمن ، وملكة قلبية تكفر . والمزاوجة بين الملكات المتناقضة أمر عسير على النفس وشاق ، ويتطلب مجهوداً عاطفياً ، ومجهوداً عقلياً ، ومجهوداً حركياً ، فَهُم إذا خَلَوْا إلى شياطينهم قالوا كلاماً ، وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا كلاماً ، ويقص الحق ذلك حين يعلنون الإيمان بألسنتهم فى قوله :

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا ... ⦗١٤⦘﴾ [البقرة]

أما إذا خَلَوْا إلى أنفسهم فالحق يصف حالهم :

﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ ... ⦗١٤⦘﴾ [البقرة]

---

(١) ذكرت مادة يحلفون فى سورة التوبة فى سبعة مواضع هى :
- ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ [التوبة : ٤٢]
- ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ [التوبة : ٥٦]
- ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة : ٦٢]
- ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾ [التوبة : ٧٤]
- ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ [التوبة : ٩٥]
- ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ . .﴾ [التوبة : ٩٦]
- ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ . .﴾ [التوبة : ١٠٧]

وكذلك وردت فى مواضع أخرى من القرآن :

ففى سورة النساء :
- ﴿ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ [النساء : ٦٢]

وفى سورة المجادلة :
- ﴿مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [المجادلة : ١٤]
- ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ [المجادلة : ١٨]

وهكذا تُكَبَت ملكات لسانهم فى أن يقولوا وقت أن يكونوا مع المؤمنين، أما حين يكونون مع إخوانهم فهم يُنفِّسون عن ملكاتهم فيقولون قولاً مختلفاً ، وهذه مسألة متناقضة ؛ ولذلك قال القرآن فيما سبق:

﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [التوبة]

أى: لو أنهم يجدون مكاناً أميناً ، لا يراهم فيه المؤمنون ، لنفّسوا عن أنفسهم ، وسبّوا النبى ، وسبّوا المؤمنين ، وقالوا ما يريدون ، إلا أنهم لا يجدون هذا المكان ، إنهم يتمنون لو وجدوا ملجأ يلجأون إليه ،أو مغارة يدخلون فيها ؛ لكى يُنفِّسوا عن أنفسهم ؛ إذن : ﴿ لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾[1] ، لكنهم لا يجدون.

ويقص الحق سبحانه وتعالى هنا قصة أخرى من أحوالهم فيقول عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا ...﴿١٠٧﴾ ﴾ [التوبة]

نحن نعلم أن كلمة «مسجد» فى عمومها هى مكان السجود ، وفى الخصوص هى مكان يحجز للسجود وللصلاة فقط ، فإن أردت المعنى العام، فكل الأرض مسجد[2] ، وتستطيع أن تصلى فى أى مكان فيصير

---

(١) جمح الفرس : انطلق يعدو لا يثنيه شىء ، أو غلب راكبه فجرى كما يريد ، قال تعالى : ﴿لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ [التوبة: ٥٧] أى: فروا خوفاً وفزعاً إلى أى ملجأ لا يردهم شىء كالخيل الجامحة.

(٢) عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلى : كان كل نبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحمر وأسود ، وأحلت لى الغنائم . ولم تحل لأحد قبلى ، وجعلت لى الأرض طيبة طهوراً ومسجداً ، فأيما رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان ، ونصرت بالرعب بين يدى مسيرة شهر ، وأعطيت الشفاعة » . متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣٥) ومسلم (٥٢١) .

مسجداً ، لا بالمكان ولكن بالمكين [1] ، وبعد ذلك تزاول فيه أعمال الحياة ، وقد تصلى فى الفصل الدراسى أو المكتب أو المصنع أو الحقل أو فى أى مكان تزاول فيه أسباب الحياة.

وبذلك يصبح المكان الذى تصلى فيه مسجداً بالمكين ، ولكن هناك مسجد آخر مخصص دائماً للصلاة حين يؤخذ حيز من المكان ، ويقال: «حجز ليكون مسجداً » ، فلا تباشر فيه أى عملية من عمليات الحياة إلا الصلاة وهو مسجد - بالمكان - ، ونحن نعلم أن أول مسجد أُسِّس هو مسجد قباء والذين بنوه هم بنو عمرو بن عوف ، ثم أراد المنافقون أن يُنفِّسوا عن أنفسهم فى صورة طاعة ، فبنوا مسجداً ضراراً ، وقد بناه بنوغُنْم بن عوف وأرادوا بهذا المسجد أن ينافسوا مسجد قباء.

ونعلم كيف يكون الضرار بين المتنافسين على شىء ، كما يحدث الآن تماماً ، وتسمع من يقول : ولماذا أقام الحى الفلانى مسجداً ، ولم نُقم نحن مسجداً ؟

وعلى ذلك فكل مسجد فيه هذه الصفة ؛ صفة التنافس للحصول على سمعة أو تحيز لجهة على جهة ، أو رياء ، فهذا يعتبر مسجداً ضراراً ؛ لأن كل هذه المسائل فرقت جماعة المسلمين.

وقد يقول قائل : ولكن هذا الأمر ظاهرة صحية ، ونقول : لا ، إن لنا أن نعرف أنها ظاهرة مرضية فى الإيمان ؛ لأنك حين ترى المسجد وليس

---

(١) مكُنَ من باب كَرُمَ - مكانة فهو مكين : ثبت واستقر فهو ثابت ومستقر قال تعالى : ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤] أى : عظيم ثابت المنزلة ومَكَّن له فى الشىء ثبته قال تعالى : ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا﴾[القصص: ٥٧] أى : حرماً ثابتاً ، وأمكنه من عدوه نصره عليه ، قال تعالى : ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأنفال: ٧١].

فيه صفان مكتملان ، ثم يوجد بعده بعدة أمتار مسجد ، وهناك مسجد ثالث بعد عدة أمتار ، ثم مسجد رابع ، فهذه كلها مساجد ضرار[1] .

إذن : فـ«المسجد» بمعناه الخاص هو المكان الذى يحيز حتى يصير مسجداً ، لا يزاول فيه شىء غير المسجدية ، ولذلك نجد النبى ﷺ حين رأى واحداً ينشد ضالته فى المسجد ، قال له : « لا رد الله عليك ضالتك »[2] . لأن المسجد حين تدخله فأنت تعلن نية الاعتكاف لتكون فى حضرة ربك ، وعندك من الوقت خارج المسجد ما يكفيك لتتكلم فى مسائل الدنيا .

إذن : فهؤلاء القوم أرادوا أن يُنفِّسوا عن نفاقهم بمظهر من مظاهر الطاعة، فقالوا : نقيم مسجداً ، وبذلك نفرق جماعة المسلمين ، فجماعة يصلون هنا ، وجماعة يصلون هناك ، وإن قعدنا نحن نصلى فيه فنكون أحراراً ، ونتكلم مثلما نريد ، أما حين نذهب للصلاة فى المسجد الآخر ، فنحن نجلس هناك مكبوتين ، وغير قادرين على الكلام ، ونحن نريد أن ننفس عن أنفسنا .

فهم بَنَوْا المسجد ، ثم طلبوا من رسول الله ﷺ أن يصلى معهم فى المسجد الجديد أثناء خروجه لغزوة تبوك فاعتذر رسول الله ﷺ وأوضح

(١) هذا يتلاقى مع ما قاله القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣١٨٠) : « قال علماؤنا : لا يجوز أن يبنى مسجد إلى جنب مسجد ، ويجب هدمه والمنع من بنائه لئلا ينصرف أهل المسجد الأول فيبقى شاغراً ، إلا أن تكون المحلة كبيرة فلا يكفى أهلها مسجد واحد فيبنى حينئذ. وكذلك قالوا: لا ينبغى أن يبنى فى المصر الواحد جامعان وثلاثة ، ويجب منع الثانى ، ومن صلى فيه الجمعة لم تجزه » . واللغة تقول : ضاره يضاره مضارة وضراراً مفاعلة بين اثنين ﴿لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ﴾[البقرة: ٢٣٣] وإحداث مسجد كهذا ضار لجمع المسلمين ومدعاة للتفرق .

(٢) عن أبى هريرة قال قال ﷺ: « إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع فى المسجد فقولوا : لا أربح الله تجارتك ، وإذا رأيتم من ينشد ضالة فقولوا : لا ردها الله عليك » . أخرجه النسائى فى عمل اليوم والليلة (ص ٧٣) والدارمى (١/ ٣٢٦) والترمذى (١٣٢١) وقال : حسن غريب .

لهم: إننا فى حال لا يسمح بذلك ، وإن شاء الله عند عودتنا من الغزوة نصلى فيه . وبعد أن عاد من الغزوة حاولوا أن يستوفوه وعده ، ويطلبوا منه الوفاء بوعده ، فإذا بجبريل ينزل عليه بالآيات التى توضح حكاية هذا المسجد ، وكيف أنه مسجد ضرار ؛ لأن الله علم نيتهم فى ذلك.

ومعنى «الضرار» من المضارة ، وأنهم أرادوا أن يأخذوا راحتهم فى كل الزمن ، وأن يبتعدوا عن التواجد مع المؤمنين فى المسجد الذى يصلى فيه رسول الله ، ويريدون أن يخلو بعضهم ببعض ، وأن يتكلموا كما يريدون فى مضارة المسلمين ، ويفرقوا بين جماعة المسلمين . ثم يقول سبحانه: ﴿ وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ .

إذن: فكل ما يفتت جماعة المسلمين هو أمر ضار بمصلحة الإسلام ؛ لأن الإسلام يريد أن يعلم الناس أنهم قوة مجتمعة ، ويكون أمر هذه القوة واضحاً ؛ ولهذا أباح الحق أن تصلى الصلوات فى أى مكان ، وحتَّم أن نصلى جميعاً يوم الجمعة فى مكان واحد ؛ ليفرح المسلمون حين يرون أنفسهم مقبلين على الدين ، ويلتقى كل واحد منهم بالآخر ؛ ولذلك كان مسجد الضرار هذا تفريقاً بين المسلمين.

ثم يقول سبحانه:

﴿ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ﴾ والإرصاد [1] هو الترقب ، ولذلك يقال : لقد استمر القوم فى المكان الفلانى لرصد فلان ، أى: أنهم أناس يترقبون مجيئه بمكان ليفتكوا به ، وهذا هو ترقب الكراهية لا ترقب

---

(١) أرصد : أعد وجهز ، قال تعالى: ﴿وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ﴾ [التوبة: ١٠٧] أى : أعدوه لأعداء الإسلام الذين كانوا ولايزالون يحاربونه ، فمسجد الضرار كان مأوى لمن يريد أن يكيد للإسلام .

الحب. والذين أقاموا هذا المسجد أرصدوه مترقبين ومنتظرين إنساناً له سابقة فى عداء رسول الله ﷺ [(١)]، وهو الذى طلب منهم إقامة هذا المسجد وهو «أبو عامر الراهب» وقد سماه رسول الله «الفاسق».

وأبو عامر هذا رجل تنصَّر فى الجاهلية، ولم تكن الجاهلية بيئة ديانات، فمن كان مثلاً يسافر إلى مكان ويسمع بدين فهو يأتى به ليدعو لهذا الدين ويترأس من يتبعونه، وأبو عامر من هؤلاء الذين تنصَّروا وصاروا فى المدينة، فلما جاء رسول الله ليبطل كل هذه الأشياء فى المدينة وزالت رياسته، عادَى رسول الله ﷺ، حتى قال له فى أحد: ما رأيت قوماً يقاتلونك إلا قاتلتكَ معهم. وحين تمكن الإسلام فى المدينة فر إلى مكة، ولما فتحت مكة فرّ إلى الطائف، فلما آمن أهل الطائف، لم يجد له وطناً فذهب إلى الروم «بالشام». ثم كتب للمنافقين أن أعدّوا مسجداً؛ لأنى سآتى لكم بقوة من ملك الروم؛ لأهاجم محمداً وأحاربه وأخرجه من المدينة [(٢)].

إذن: فهم قد بَنَوْا ذلك المسجد ضراراً، وكفراً، وتفريقاً، وإرصاداً، أى: ترقباً وانتظاراً لذلك الراهب الذى سيذهب إلى الشام ويأتى بجنود لمحاربة الله ورسوله. ورغم أنهم قد فعلوا ذلك، فقد امتلكوا جراءة الطلب من رسول الله أن يصلى معهم فيه بهدف ترسيم هذا المكان مسجداً ليصلى

(١) من هذا ما ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية فى غزوة أحد (٣/ ٨٠): «وقع رسول الله ﷺ فى حفرة من الحفر التى عمل أبو عامر ليقع فيها المسلمون، وهم لا يعلمون، فأخذ على بن أبى طالب بيد رسول الله، ورفعه طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائماً». انظر أيضاً تفسير ابن كثير (٢/ ٣٨٧).

(٢) قصة نفاق هذا الرجل وعدائه لرسول الله ﷺ مذكورة فى أسباب النزول للواحدى (ص١٤٩)، وتفسير القرطبى (٤/ ٣١٨٣) وابن كثير (٢/ ٣٨٧، ٣٨٨) وسيرة ابن هشام (٣/ ٨٠). وهو والد صحابى جليل هو حنظلة غسيل الملائكة، استشهد يوم أحد وهو جنب فغسلته الملائكة.

فيه الناس ما دام رسول الله ﷺ قد صلى فيه ، وظنوا أن هذه المكيدة سوف تفلح ، ولكن الله الذى يحرس نبيه ، ويحرس دينه من المنافقين ، كشف له حقيقة هذا المسجد.

وقد يتغافل رسول الله ﷺ عن المنافقين بعض الشىء لحكمة ؛ فهم قد أخذوا بالإسلام لوناً من الصحبة ، ولم يفضحهم أولا حتى لا يقال : إن محمداً يحارب أصحابه[1] ؛ لذلك فرسول الله ﷺ كان يعلم ما لم يكن يعلمه غيره ؛ لذلك أراد أن يحمى الإسلام من لسان من لم يعلم . ولكن بعد أن انكشف الأمر أرسل رسول الله ﷺ «مالك بن الدُّخْشم» و«عامر بن السكن» ، و«وحشىّ» قاتل حمزة، و«معن بن عدى» ليهدموا هذا المسجد ، وأن يجعلوا فى موضعه مكان «القمامة». وبذلك فُضِحَ المنافقون ، فَأسرُّوها فى نفوسهم.

وأنت إذا رأيت من عدوك فعلاً تكرهه ، فعليك أولاً أن تفسد عليه الفعل، هذه أول مرحلة ، فإذا تكرر الفعل منه ، ولم يرتدع ، لابد أن تضعه فى مكانه اللائق به . والمنافقون أرادوا بهذا المسجد الضرر والإضرار بالإسلام ، وكان يجب أن يكفوا عن مثل هذا العمل ما دام الحق قد كشفهم. لكنهم لم يكفوا ، وظلوا سادرين فى العداوة للإسلام ؛ لذلك كان لابد كما تخلصت أولاً من الفعل أن تتخلص من الفاعل ؛ لذلك أصبحوا خائفين من أن يتجه الردع إلى الفاعل ، والحق سبحانه يقول:

---

(١) وقد كان رسول الله ﷺ حريصاً على ألا يقول الناس : إن محمداً يقتل أصحابه ، وقد ورد هذا فى حديث جابر بن عبد الله أن عبد الله بن أبى قال : أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . فبلغ النبى ﷺ فقام عمر فقال : يا رسول الله دعنى أضرب عنق هذا المنافق ، فقال النبى ﷺ : « دعه ، لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه » أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٩٠٥) ومسلم فى صحيحه (٢٥٨٤) .

﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ (٦٤)﴾ [التوبة]

ونعلم أن المريب يكاد أن يقول : خذونى . إنه بسلوكه إنما يدل على نفسه ، ويأتى القرآن فى سورة ثانية فيقول :

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ... (٤)﴾ [المنافقون]

وهم يتصرفون هكذا لأن الريبة تملأ أعماقهم [1] ، وكلما رأى واحد منهم مؤمناً يسير إلى ناحيته يظن أنه جاء ليؤدبه ضرباً أو قتلاً .

والحق سبحانه يقول هنا :

﴿وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ﴾ ، وكلمة ﴿مِن قَبْلُ﴾ فيها إيحاء بأن لهم سوابق فى محاربة رسول الله بغرض أن يؤذوه ﷺ ، ولكن الحق سبحانه يحميه دائماً ، ولم يعد هناك مكر أو حرب يمكن أن ينالوا بها منه ﷺ .

وفى هذا الأمر أمثلة كثيرة، فالقرآن حينما يقص على رسول الله ﷺ أحوال اليهود ويوضح له : ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ...(٦١)﴾ [البقرة]

أليس هذا القول يدفع فى خاطره احتمال أن يقتلوه؟ بلى فهم ما دامت عندهم الجرأة على قتل الأنبياء فما الذى يمنعهم من قتله؟ لكن الحق يطمئنه ويكبتهم ويقطع عندهم الأمل، ويأتى قوله الحق:

---

(١) وفى هذا يقول رب العزة عنهم: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ ...﴾ [التوبة: ١١٠] يقول ابن كثير فى تفسيرها : « أى شكاً ونفاقاً بسبب إقدامهم على هذا الصنيع الشنيع أورثهم نفاقاً فى قلوبهم » .

﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ .. (٩١)﴾ [البقرة]

وقوله : ﴿مِن قَبْلُ﴾ هنا يعنى أن ذلك لن يحدث الآن ، فقد اختلف الموقف . وهكذا طمأن الله رسوله ﷺ ، وبذلك كُبتت هذه الفكرة إن فكروا فيها [1] .

وأيضاً حين يأتى القرآن بشيء فى نيتهم أن يفعلوه ، ولم يفعلوه بعد ، ويفضحهم القرآن بإعلان ما فى نيتهم ، ومن غبائهم فهم يفعلون الأمر المفضوح ، ولو كان عندهم قليل من ذكاء لامتنعوا عن فعل ما فضحهم به القرآن .

ويتمثل ذلك فى أحد المواقف التى يحلفون فيها ، ولو كان فيهم رجل رشيد يملك التفكير المتوازن لقال لهم : إنكم سوف تحلفون ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَىٰ﴾ فلا تحلفوا حتى يشك المسلمون فى القرآن ، ومن غبائهم أيضا أنهم حلفوا فى أمر لهم فيه اختيار أن يفعلوه أو لا يفعلوه ، مثلما قال الحق سبحانه :

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا... (١٤٢)﴾ [البقرة]

إنهم لم يكونوا قد قالوا بعد ، وأنزل الحق ذلك فى قرآن يتلى كل صلاة ، ويعرفه كل مسلم ، فكيف يقولون نفس القول بعد أن نزل به القرآن ؟ لقد فعل اليهود ذلك ؛ وهم بهذا الفعل قد اختاروا أن يكونوا سفهاء ، ولم يخرج منهم عاقل واحد يحثهم على ألا يقولوا .

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : « كان النبى ﷺ يحرس حتى نزلت هذه الآية : ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ... (٦٧)﴾ [المائدة] فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القبة ، فقال لهم : يـأيها الناس انصرفوا فقد عصمنى الله » . أخرجه الترمذى فى سننه (٣٠٤٦) واستغربه ، وأخرجه أيضاً أبونعيم فى الحلية (٦/ ٢٠٦) والحاكم فى مستدركه (٢/ ٣١٣) وصححه .

وهنا يقول الحق: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَىٰ﴾ والحق هنا قد أكد الأمر حين جاء بلام القطع. وهم قد أقسموا وقالوا: ما أردنا باتخاذ هذا المسجد إلا مصلحة المسلمين ولنيسر على المعذورين والمرضى، والعاجزين عن السير إلى المسجد الآخر، وإن كانت ليلة مطيرة أو ليلة شاتية، فيستطيع الناس أن يجدوا مسجداً ثانياً ليصلوا فيه [1]، ولكن حكم الله ينزل ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

فهل قوله الحق: ﴿لَا تَقُمْ [2] فِيهِ أَبَدًا﴾ معناه أن يظل المسجد قائما ولا تقام فيه صلاة؟ هل ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ صيغتها النهي، أي لا تُصَلِّ فيه، أم أنها إخبار من الحق بأنك لن تقيم فيه صلاة أبداً؛ لأنه لن يكون له وجود؟

(١) قال ابن إسحاق في السيرة: «كان أصحاب مسجد الضرار قد كانوا أتوه وهو يتجهز إلى تبوك، فقالوا: يا رسول الله ﷺ، إنَّا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية، وإنا نحب أن تأتينا، فتصلي لنا فيه، فقال: إني على جناح سفر، وحال شغل، ولو قد قدمنا إن شاء الله لأتيناكم، فصلينا لكم فيه» [سيرة النبي لابن هشام ٤/ ٥٣٠].

(٢) قام يقوم: نهض معتدلاً دون عرج، ويستعار للاعتدال في السلوك والأخلاق، وقام بالمكان مكث فيه على أي حال مثل أقام، ومن ذلك قوله تعالى ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ [البقرة: ٢٠] أي: توقفوا عن السير ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ ﴿١٢﴾﴾ [الروم] أي: تقع وتتحقق، وقوله ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ ﴿١٩﴾﴾ [الجن] أي: نهض واجتهد في الدعوة إلى الله، وهنا النهي منصب على أن الصلاة لا تقام فيه؛ لأنه لن يكون له وجود.

إن قوله الحق سبحانه يعنى أن هذا المسجد يجب ألا يكون له وجود ، ثم تجد الله سبحانه يقول : ﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ إذن : فالمسألة ليست فى بناء المسجد ، ولكنها فيمن يدخل المسجد ويعمره ، فهنا مسجد ، وهناك مسجد ، أما المسجد الأول [١] فقد أسس على التقوى ، وفيه أناس يحبون أن يتطهروا ، أما مسجد الضرار فقد أقامه منافقون يحبون أن يتقذروا ؛ لأنهم المقابل لمن يحبون أن يتطهروا.

ومعنى الحب هو ميل الطبع إلى شىء تنبسط له النفس وتخفُّ لعمله.

وحينما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ : «يا معشر الأنصار ، إن الله قد أثنى عليكم فى الطهور ، فما طهوركم هذا ؟ قالوا: يا رسول الله نتوضأ للصلاة ونغتسل من الجنابة ،فقال رسول الله ﷺ: فهل مع ذلك من غيره؟»

وهنا قال أهل قباء: «لا ، غير أن أحدنا إذا خرج من الغائط أحب أن يستنجى بالماء» [٢] ، وكان الواحد منهم يمسك الحجر ويمسح به محل قضاء الحاجة ؛ فيخفف من استخدام المياه ؛ لأن المياه كانت قليلة عندهم ، ثم يستخدم الماء بعد الأحجار [٣] ليكمل ويتم نظافته ، وأضافوا : «ولا نبيت على جنابة ، ولا نُصرّ على ذنب ، فإن غلبنا الذنب تعجّلنا التوبة».

﴿ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ والحب هنا متبادل ، فلا شىء أقسى على النفس من أن يكون الحب من طرف واحد ، وهذا هو الشقاء بعينه. والشاعر يقول:

---

(١) هو مسجد قُباء ، وهو أول مسجد بنى فى الإسلام ، بنى قبل مسجد النبى ﷺ .

(٢) أخرجه ابن ماجه فى سننه (٣٥٥) والدارقطنى فى سننه (١/ ٦٢) والحاكم فى مستدركه (١/ ١٥٥) (٢/ ٣٣٤) وصححه . قال الزيلعى : سنده حسن لكن فيه عتبة بن أبى حكيم ليس بقوى .

(٣) هى ثلاثة أحجار يستنجى بها من الغائط ، فعن عائشة أن النبى ﷺ قال : « إذا ذهب أحدكم إلى الغائط فليستطب بثلاثة أحجار فإنها تجزىء عنه » أخرجه أحمد (٦/ ١٠٨ ، ١٣٣) وأبو داود فى سننه (٤٠) والنسائى (١/ ٤١ ، ٤٢) والدارقطنى فى سننه (١/ ٥٤) . فأهل قباء كانوا يضيفون الماء بعد هذه الأحجار الثلاثة حجراً بعد الآخر ، وذلك لشدة حرصهم على الطهارة .

أنتَ الحبيبُ ولكنِّى أعوذُ بكَ مِنْ أنْ أكُونَ حَبيباً غَيْرَ مَحْبُوبِ

وشقاء المحبين أن يكون الحب من جانب واحد ، أما حين يكون الحب متبادلاً من الجانبين فهو قمة الإسعاد ، وكذلك حين تكون العداوة من جانبين فهى تأخذ قمة الإيعاد والإبعاد ، فحين تكون العداوة من جانب واحد ، تنتهى بسرعة ، لكن عندما تكون من الجانبين فإنها لا تنتهى بل تزداد اشتعالاً .

إذن : فحين يكون الحب متبادلاً تجد المحب كلما رأى حبّاً من حبيبه رد عليه بحب ، فينمو الحب ويزداد ، ولا يكون الأمر كذلك إلا إذا كان حب القلوب فيما لا يتغير وهو «الحب فى الله » ، فإذا رأيت حبّاً بين اثنين يتناقص بمرور الزمن ؛ فاعلم أنه حب لغير الله ، وإن رأيت الحب ينمو كل يوم ، فاعلم أنه حب فى الله.

والحق سبحانه يقول فى قصة فرعون وموسى :

﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا... (٨) ﴾ [القصص]

هم لم يلتقطوه ليكون عدواً لهم ؛ فهذا الاحتمال لو كان قد جاء فى بال آل فرعون لقتلوه ، ولكنهم التقطوه ليكون قرة عين لهم ، فانظر كيف يدخل الله على تغفيل الكافرين به [(١)] ، فآل فرعون هم من يربون موسى ؛ ولذلك قال له فرعون : ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) ﴾ [الشعراء]

ولكن موسى عليه السلام لا يجامل فى الحق ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى هو من ربّاه ، أما تربية فرعون فلم يكن لها اعتبار فى ميزان الحق ، وقد

(١) وفى هذا يقول سبحانه : ﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ [القصص : ٩]

تكون العداوة هينة لو كانت من جانب موسى وحده ، ولكن شاء سبحانه ألا تكون العداوة من جانب موسى فقط ، بل من جانب فرعون أيضاً ، فيقول سبحانه :

﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ... (٣٩) ﴾ [طه]

ويقول سبحانه في مجال الحب المتبادل :

﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ...(٥٤) ﴾ [المائدة]

فحين يحبون الله يرد سبحانه على تحية الحب بحب زائد [1] ، وهم يردون على تحية الحب منه سبحانه بحب زائد، وهكذا تتوالى زيادات وزيادات ؛ حتى نصل إلى قمة الحب ، ولكن الحب عند الله لا نهاية له ، وأنت حين تقرأ القرآن تجد قوله سبحانه وتعالى :

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ.. (٥٩) ﴾ [النمل]

ويقول سبحانه أيضاً : ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ ... (٤٤) ﴾ [الأحزاب]

لم يأت سبحانه هنا بـ «الـ» التعريفية ؛ لأنها لو جاءت لانحصر السلام في لون واحد. فأنت حين تقول: لَقيت الرجل ، فأنت تحدد الرجل . لكنك إنْ قلت : لقيت رجلاً. فقد يكون الرجل هذا أو ذاك أو غيرهما . فإن جاء الاسم نكرة صار شائعاً ، أما إن كان بالتعريف فيكون محدداً.

والحق حين تكلم عن يحيى عليه السلام قال:

﴿وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (١٥) ﴾ [مريم]

---

(١) عن أبي هريرة قال قال النبي ﷺ : «يقول الله تعالى : أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرب إليّ شبراً تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إليّ ذراعاً، تقربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة» أخرجه البخاري في صحيحه (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥).

لأنه يريد أن يكثر السلام. وحين تكلم عيسى عليه السلام عن نفسه قال:

﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣)﴾ [مريم]

وحين يلقاك إنسان فهو يقول لك: «سلام عليكم» ، وأنت ترد: «وعليكم السلام» ، لماذا ؟ لأن «سلام عليكم» معناها أن السلام منى يكون عليك وعلى غيرك ، أما ردُّك «وعليكم السلام» فيعنى أنك خَصَصْتَه بهذا السلام.

وهنا الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها زادت فى التحية حيث يقول الحق سبحانه:

﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ وهذا لأن الذى يحب أن يكون طاهراً دائماً ، قد أنس بفيوضات الله عليه [(١)] ، وما دامت ذراته كلها طاهرة من النجاسات المعنوية ومن النجاسات الحسية يصبح جهاز استقبال الفيوضات من الله عنده صالحاً دائماً للاستقبال، والحق سبحانه وتعالى يرسل إمداداته فى كل لحظة، ولا تنتهى إمداداته على الخلق أبداً، وسبحانه يصف نفسه بأنه القيوم فاطمئنوا أنتم، فإن كنتم تريدون أن تناموا فناموا؛ فربكم لا تأخذه سنة ولا نوم.

إذن: فقد جاء الإيمان ليريحنا لا ليتعبنا، كما أنه سبحانه يصف نفسه [(٢)] :

﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ... (٦٤)﴾ [المائدة]

---

(١) لأنهم تخلوا عن النجاسات حساً ومعنى ، وتحلوا بالطهر والعبادة ، فتجلى الله عليهم بفيضه ونوره.

(٢) وذلك أن اليهود وصفوا الله سبحانه بأنه بخيل لا ينفق فقالوا : ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ...﴾ [المائدة : ٦٤] . وقد أخرج الشيخان البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : «إن يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة سحّاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض فإنه لم ينقص ما فى يمينه، وعرشه على الماء، وبيده الأخرى الفيض، يرفع ويخفض». أخرجه البخارى (٧٤١٩) ومسلم (٩٩٣)

أى: يطمئن الخلق أنهم بمجرد إيمانهم ستأتيهم إمدادات الله وفيوضاته المعنوية والمادية. فصحِّح جهاز استقبالك؛ بألا توجد فيه نجاسة حسيّة أو نجاسة معنوية؛ ولذلك إذا رأيت إنساناً عنده فيوضات من الحق فاعلم أن ذرات جسمه مبنية من حلال (١)، ولا توجد به قذارة معنوية، ولا قذارة حسّية، ويتضح ذلك كله على ملامح وجهه، وكلماته، وحسن استقباله. وإن كان أسمر اللون فتجده يأسرك ويخطف قلبك بنورانيته. وقد تجد إنساناً أبيض اللون، لكن ليس فى وجهه نور؛ لأن فيوضات ربنا غير متجلية عليه.

وكيف تأتى الفيوضات؟ إنها تأتى بتنقية النفس؛ لأن الإنسان إن افتقر إلى الفيوضات الربانية، فعليه أن يبحث فى جهازه الاستقبالى. وأضرب هنا مثلاً بالإرسال الإذاعى، فمحطات الإذاعة ترسل، ومن يملك جهاز استقبال سليم فهو يلتقط البث الإذاعى، أما إن كان جهاز الاستقبال فاسداً فهذا لا يعنى أن محطات الإذاعة لا تبث برامجها.

ولذلك قال الحق:

﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ... (٦٤) ﴾ [المائدة]

فاحرص دائماً على أن تتناول من يد ربك المدد الذى لا ينتهى، والحديث الشريف يقول:

« إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها » (٢).

---

(١) عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «والذى نفس محمد بيده، إن مثل المؤمن كمثل النحلة أكلت طيباً ووضعت طيباً» أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٢/ ١٩٩).

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٥٩) وأحمد فى مسنده (٤/ ٣٩٥، ٤٠٤) من حديث أبى موسى الأشعرى.

والليل قد ينتهي عند إنسان ، ويبدأ عند إنسان آخر ، وهكذا النهار ، فالليل مستمر دائماً والنهار مستمر دائماً ، فيداه سبحانه مبسوطتان دائماً ولا تنقبضان أبداً.

ثم يقول سبحانه :

﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ[1] فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾

وقوله : ﴿أَفَمَنْ﴾ استفهام[2] ، وكأنه يقول: وكيف تساوون بين مسجد أُسِّسَ على التقوى من أول يوم ، ومسجد اتُّخِذ للضرار وللكفر ولتفريق جماعة المسلمين وإرصاداً لمن حارب الله ؟

إنهما لا يستويان أبداً ، وساعة يطرح الحق هذه العملية بالاستفهام فسبحانه واثق من أن عبده سيجيب بما يريد الله .

وقوله الحق : ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ[3] بُنْيَانَهُ﴾ نجد كلمة « بنيان» وهي مصدر ؛ «بنى» «بنياناً» ، لكن أطلق على الشيء المبنى ، فنقول : إن هذا البنيان جميل ، أو نقول مثلاً: إن طراز هذا البنيان فرعوني.

إذن : هناك فرق بين عملية البناء وبين الشيء الذى ينشأ من هذه

(١) على شفا جُرف : على حرف بئر لم تُبْنَ بالحجارة. هَارٍ : هائر متصدع أو متهدم. فانهار به : سقط البنيان بالباني.

(٢) جاء الاستفهام هنا بالهمزة، وهي ترد لطلب التصور والتصديق، بخلاف هل، فإنها للتصديق خاصة، وسائر أدوات الاستفهام للتصور خاصة . (الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ١٤١/٢)، والاستفهام هنا استفهام معناه التقرير ، أي تقرير أن من أسس بنيانه على تقوى من الله خير ممن أسس بنيانه على شفا جرف هار .

(٣) أسس بنيانه : أقامه على أساس قوي وعلى قواعد راسخة .

العملية ، وكلمة البنيان اسم جنس جمعى[1] ؛ لأنه يصح أن يكون جمعاً ومفرده «بنيانة» مثلما نقول: «رمان» ، ومفرده «رمانة» ، و«عنب» ومفرده «عنبة» ، وأيضاً «روم» مفرده «رومى» فياء النسب هنا دخلت على الجمع فجعلته مفرداً . إذن: يُفرق بين الواحد والجمع ، إما بالياء وإما بالتاء.

وقد حكم سبحانه بألا يصلوا فى مسجد الضرار ، وعليهم أن يصلوا فى المسجد الآخر ، وهو مسجد قباء ، ثم يرد سبحانه الأمر إلى المؤمنين ، ليعرفوا أن ما حكم به سبحانه هو ما تقبله العقول ، وأن حكمهم يوافق حكم ربهم.

ثم يقول سبحانه:

﴿ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ وهنا ثلاث كلمات: شفا ، وجُرف ، وهَار. والشفا مأخوذ من الشَّفَة ، و«الشفا» حرف الشىء وطرفه . وسكانُ سواحِل البحار يعرفون أن البحار لها نحر من تحت الأرض ، وتجد الماء يحفر لنفسه مساحة تحت الأرض ويترك شفة من الأرض ، ولو سار عليها الإنسان لوقع ؛ لأنها الطرف الذى ليس له قاعدة وأسفله مَنْحور.

و«شفا جُرُف » أى طرف سينهار ؛ لأنه «هار» أى غير متماسك ، فتكون الصورة أن الماء ينحر فى الساحل ، فيصنع شَفة لها سطح وليس لها قاعدة تحتها ، وهذه اسمها «شفا جُرُف».

وقد قال القرآن فى موضع آخر:

(١) اسم الجنس الجمعى: هو ما له مفرد يشاركه فى لفظه ومعناه معاً ، ولكن يمتاز المفرد بزيادة تاء التأنيث فى آخره أو ياء النسب . قال الفيروز آبادى فى «بصائر ذوى التمييز» (ص ٢٧٧) : «البنيان، واحد لا جمع له . وقال بعضهم: جمع واحدته «بنيانة» على حد «نخلة ونخل» وهذا النحو من الجمع يصح تذكيره وتأنيثه».

﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ... (١٠٣) ﴾

[آل عمران]

إنها الحفرة فى النار ، فكيف يكون شكلها ؟ لابد أنه مرعب .

ونحن نعلم أنهم كانوا حين يحفرون الآبار ليأخذوا منها الماء ، كانوا يضعون فى جدار البئر أحجاراً تمنع ردمه ؛ لأن البئر إن لم يكن له جدار من حجارة قد ينهار بفعل سقوط الرمال من على فوهته ، وهكذا تمنع الأحجار أى جزء متآكل من سطح البئر من الوقوع فيه ، والجزء المتآكل هو جرف هَارٍ ، وهكذا كان مسجد الضرار، ينهار بمن فيه فى نار جهنم .

ويذيل الحق الآية : ﴿ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ وهم كانوا ظالمين بالنفاق ؛ لذلك لم يَهْدهم الله إلى عمل الخير ؛ لأن الله لا يهدى الظالم . وسبحانه يقول فى أكثر من موضع بالقرآن :

﴿ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (١٠٨) ﴾ [المائدة]

ويقول سبحانه :

﴿ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤) ﴾ [البقرة]

ويقول عز وجل :

﴿ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨) ﴾ [البقرة]

والهداية - كما علمنا من قبل - قسمان : هداية الدلالة ، وهى لجميع الخلق ويدل بها الله الناس على طريق الخير ، ولهم أن يسلكوه أو لا يسلكوه ،

فهم أحرار ، فلله هداية شملت الجميع ، وهى هداية الدلالة ، أما الهداية المنفية هنا فهى هداية المعونة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً[١] فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ ﴾

البنيان الذى بنوا هو مسجد الضرار ، وأرادوا به ضراراً وكفراً وتفريقاً وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله ، وكان رسول الله ﷺ قد وعدهم أن يصلى فيه ، وكشف له الحق أنهم أرادوا بصلاة رسول الله فيه ذريعة[٢] وأن يرسموا الصلاة فيه .

ولما عاد ﷺ من غزوة تبوك أنزل الله عليه : ﴿لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ وأرسل ﷺ بعضاً من صحابته[٣] ليهدموا هذا المسجد ، ولم يكتف بالهدم ، بل أمر أن يُجْعَل مكان المسجد قمامة إشعاراً منه ﷺ بأن المسجد بنيته الأولى كانت نجاسته نجاسة معنوية ، وحين توضع فيه النجاسة الحسّية ، تكون طهارة بالنسبة للنجاسة المعنوية ، فكأنه طهر المكان من النجاسة المعنوية بالنجاسة الحسيّة .

ورسول الله يعلمنا هنا أن الأمر ليس أمر نجاسات حسيّة ، وإنما النجاسات المعنوية أفظع من النجاسات الحسيّة ، فالإنسان قد يتحرز من

(١) ريبة : شكاً ونفاقاً فى قلوبهم .
(٢) ذريعة : أى وسيلة وتوصلاً لهدف معين .
(٣) منهم : مالك بن الدخشم ومعن بن عدى . أما مالك فقد شهد بدراً . و أما معن بن عدى بن الجد حليف الأنصار فقد شهد غزوة أحد . (انظر الإصابة فى تمييز الصحابة) .

النجاسات الحسيّة ، لكن النجاسات التى تخامر [1] القلوب والعقائد والعواطف فهى التى تسبب للإنسان الشقاء.

وهنا يقول الحق: ﴿ لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِى بَنَوْا رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ فبعد أن هدم رسول الله ﷺ هذا البنيان وصار موقعه موضع القذارة، بقى أمر هذا البنيان موضع شك منهم وصاروا يتوجسون أن يتزل بهم رسول الله ﷺ العقاب ، وظلوا فى شك من أن يصيبهم رسول الله ﷺ بسوء، ولن يذهب هذا الشك من قلوبهم إلا أن تقطع تلك القلوب بالموت.

إن الشك والريبة محلها القلب ، والقلب هو العضو الثانى فى استبقاء الحياة، أما العضو الأول فى استبقاء الحياة فهو المخ ، فما دامت خلايا المخ سليمة ، فمن الممكن أن تعود الحياة إلى الإنسان ولكن برتابة ، أما القلب فحين يتوقف فالأطباء يحاولون أن يعيدوا له الحركة ، إما بشق الصدر أو تدليك القلب ليعود إليه النبض ، وقد يفلحون ما دامت خلايا المخ سليمة ، فالمخ فى الإنسان هو سيد الجسم كله ، ولذلك تجدون أن الحق قد صان المخ بأقوى الصيانات بعظام الجمجمة.

وكذلك النخاعات التى تتحكم فى إدارة الجسد ، نجده سبحانه قد كفل لها من العظام أعلى درجات الصيانة. ونرى فى الحفريات أن الجماجم هى أبقى شىء ، مما يدل على أنه للحفاظ على المخ قد جعل الله له أقوى العظام ، وما دام المخ سيد الجسم سليماً فمن الممكن أن تستمر الحياة ، ولذلك نجد أن الجسم كله يخدم المدبر للجسم ، ويحافظ على صيانته.

والإنسان إن تعرض للجوع يأكل من شحمه ، وحين يفوته ميعاد تناوله للطعام ، يعرض عليه الطعام يقول: ليس لى رغبة فى الأكل ، وهذا ليس إلاّ تعبيراً علمياً لما حدث فى الجسم ، فأنت أكلت بالفعل ، فما دام قد مر

(١) خامر القلوب : خالطها وامتزج بها.

ميعاد طعامك ولم تأكل فإن جسمك يأخذ ما يحتاجه من الدهون المخزونة به ، وإذا ما انتهى الدهن يأخذ الإنسان من لحمه ، وإذا ما انتهى اللحم يأخذ الإنسان غذاءه من عظامه ، وكل ذلك من أجل أن يبقى السيد وهو «المخ» مصاناً.

ولذلك تجد القرآن حينما عرض مسألة سيدنا زكريا ، قال على لسانه:

﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي ... ﴿٤﴾﴾ [مريم]

أي: أن آخر مخزن للقوت قد قارب على الانتهاء ، أما النبات فهو عكس الإنسان ، فسيد النبات أسفل شيء فيه وهو الجذر ، ويحاول النبات المحافظة على جذره ، فإن امتنع الغذاء عن النبات بامتناع المياه عنه ، بدأت أوراق النبات في الذبول ؛ لأنها تعطى حيويتها ومائيتها للجذر ، ثم تجد الساق تجف لأنها تعطى حياة للجذر ليستمر إلى أن يأتي قليل من المياه أو قليل من الغذاء ، فيعود الجذر قوياً.

والقلب هو محل العقائد والاعتقادات ، وهي الأشياء التي تنشأ من المحسّات ، وتتكون في الفؤاد[1] لتصير عقائد لا تطفو للمناقشة من جديد ، أما العقل فهو يناقش كل المسائل ، وما إن ينتهي من الاقتناع بفكرة حتى تستقر في القلب.

وهنا يوضح لنا الله أن هذا البنيان سيظل أثره في قلوبهم ، ولن ينتهي منهم أبداً إلا بشيء واحد هو : ﴿أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ والقلوب لا تتقطع إلا بالموت، وكأن الشك من هذا البنيان سيظل يلاحقهم إلى أن يموتوا.

(١) القلب هو مضخة الدم في شرايين الجسم وعروقه هذا تعريف المادة ، والفؤاد هو عقل القلب وهو محل العقائد الناشئة عن الإدراك ، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴿٤٦﴾﴾ [الحج] وقوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾﴾ [محمد] ويطلق القلب على الفؤاد ، كما يطلق الفؤاد على القلب . فهما متلازمان . كالقلب يصل إلى الاعتقاد بالإدراك ثم يصير الإدراك انفعالاً ، وبعد الانفعال يكون الاختيار بمناقشة المسائل، ثم يكون الاختيار في البدائل وينتهي بالإقناع .

أو : ﴿ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ أى: أن تتقطع توبة وأسفاً وحزناً.

وهذا تهديد لهم بأن مسيئاتهم ليست من الخارج ، وإنما مسيئاتهم من ذوات نفوسهم . ووجود الريبة فى نفوسهم ، يعنى أنها لن تجعلهم يستشرون فى الإفساد لخوفهم المستمر من العقاب.

ثم يقول سبحانه: ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ وعلمه سبحانه شامل فلا تخفى عليه خافية ، وحكمته سبحانه أنه يضع كل شىء فى مكانه.

ثم يقول سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) ﴾

بعد أن تكلم الحق عن الذين تخلفوا عن الغزو ، وعن الذين اعتذروا بأعذار كاذبة ، وعن الذين أرجأ الله فيهم الحكم ، أراد أن يبين سبحانه أن تخلفهم ليس له أى أهمية ؛ لأن الله سبحانه وتعالى عوّض الإيمان وعوّض الإسلام بخير منهم ، فإياكم أن تظنوا أنهم بامتناعهم عن الغزو سوف يتُعبون الإسلام ، لا ؛ لأن الحق سبحانه ينصر دينه دائماً.

فيقول الله سبحانه :